بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

شروط المفسر وآدابه

من كتاب (الأساس والتنوير في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

الفصل الثالث: شروط المفسر وآدابه[١]

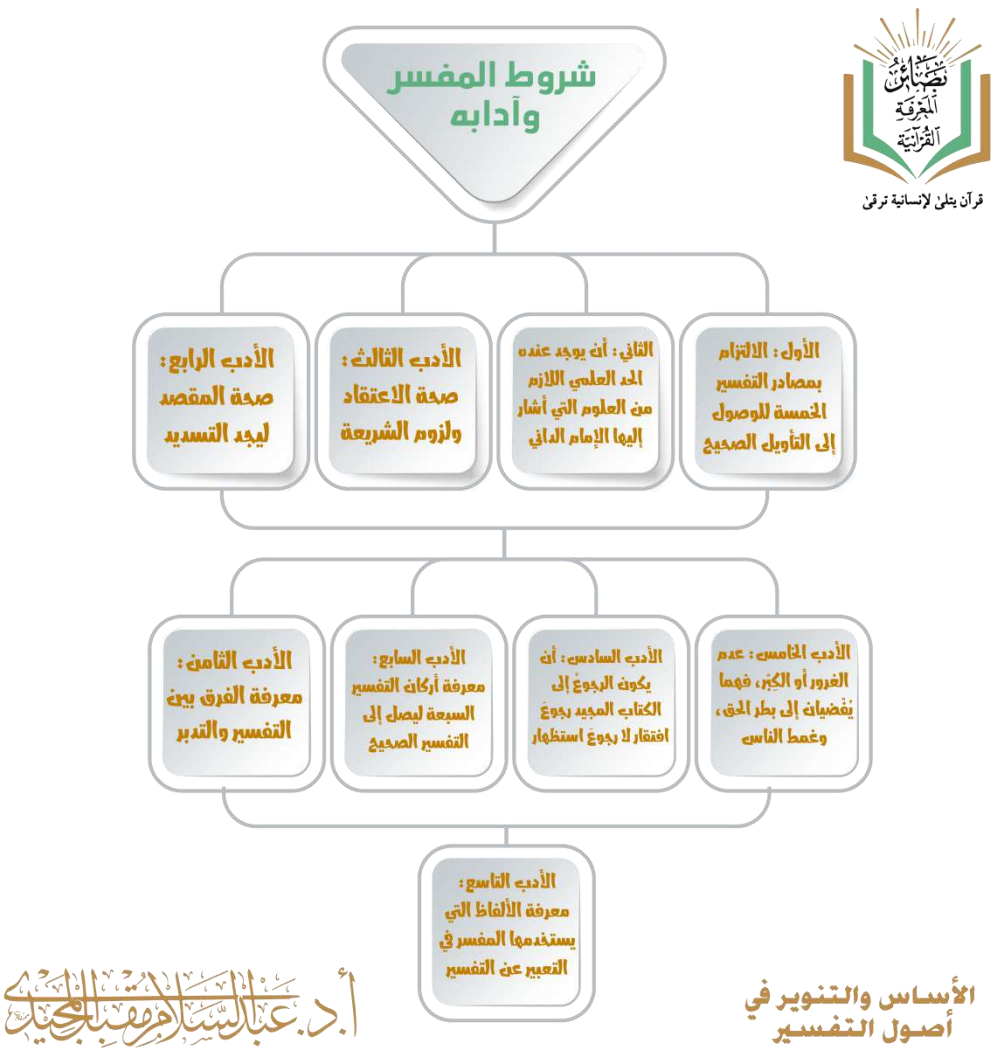

هذه جملة من الشروط والآداب التي يتوجب توفرها في المفسر:

الأدب الأول: الالتزام بمصادر التفسير الخمسة للوصول إلى التأويل الصحيح:

أما إذا لم يلتزم المفسر بها، وخاصة تفسير القرآن بالسنة، والسيرة[٢] فإن القرآن يصبح مجالاً للتأويلات الخاطئة والباطلة، ويصل الأمر إلى العبث بألفاظ القرآن؛ إذ قد سلبه عند عدم الرجوع إلى السنة أعظم بيان له، وهو البيان النبوي القولي والفعلي.

ماذا يترتب على العبث بفهم القرآن الكريم؟

تحدث التأويلات الخاطئة الظالمة: فربما أزهق روحًا بريئة مسلمة أو غير مسلمة؛ لأنه تأول القرآن تأولاً خاطئًا، وربما استباح الشهوات، وربما أقر الكفر بسبب هذا التأول الخاطئ لكلمات القرآن؛ ولذا روى الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس؛ حتى لا يقدروا منه على شيء».

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٤٦٧/٢)، مباحث في علوم القرآن (ص: ٣٤٣).

(٢) السيرة من السنة، وأُفردت بالذكر تنبيهًا.

فقال زياد بن لبيد الأنصاري ﷺ: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنَقرَأنه، ولنُقرئنه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟»[(١)]، وعن عقبة بن عامرٍ الجهني ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هلاك أمتي في الكتاب واللبن» قالوا : يا رسول الله ما الكتاب، واللبن؟ قال: «يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله ﷻ، ويحبون اللبن، فيَدعَون الجماعات والجُمَعَ ويَبْدُون»[(٢)].

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله–:

وهـــذِهِ جُمْـلـــةُ آدابٍ لِـمَـــنْ أرادَ تَفْســـيرَ الْكتـــابِ وَهْـــيَ أنْ
يَلْـــتَزِمَ الْمَصـــادِرَ الخَمْســـةَ مِـــنْ تَفْـــسيرِهِ لأَجْـــلِ تأويـــلٍ حَسَـــنْ
وهِـــيَ أنْ يُفَـــسَّرَ الْقُـــرْآنُ بِالْـــ قُـــرْآنِ أوْ سُنَّـــةِ خـــاتِمِ الرُّسُـــلْ
أوْ قَـــوْلِ صَـــحْبِهِ الكِـــرامِ أَوْ بِمـــا لِلُغَـــةِ الـعُـــرْبِ انْتَمَـــى وسَـــلِما
أوِ اجْتِهـــادِ العُلَمـــاءِ الرَّاسِـــخِينْ (التَّـــابِعِي سُنَّـــةِ خَـــيْرِ المرْسَـــلينْ)

الأدب الثاني: أن يوجد عنده الحد العلمي اللازم من العلوم التي أشار إليها الإمام الداني ﷺ في قصيدته (المنبهة): حيث قال[(٣)]:

١٥- مـن مقـرئٍ منـتصبٍ إمـامِ وعـــالِمٍ بـالنحـــو ذي تـمـــام
١٦- ومـــــاهرٍ في العلـــــم وقـــــدوةٍ في محكـــم التـنزيـــل
١٧- وفي العقـــــود وأصـــــول والفقـــه والحديـــث ذي تمكـــين
١٩- وبـــــاصرٍ بالنقـــــل مُشَـــهَّرٍ بالـفـهـــم والـدرايـــة
٢٠- وضـــابطٍ للأحـــرف وحـافـــظٍ للطـــرق المنـشـــورة
٢١- وصـــادقِ اللهجـــة غَـــيرِ لـــسنن الماضـــيين قبـلُ مـلـــتزِمِ

ولا بد من بعض تفصيل لأهم العلوم التي يحتاجها المفسر:

(١) الترمذي (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.
(٢) أحمد (١٧٤٥١)، وحسنه الأرناؤوط، وأورده الألباني في الصحيحة برقم: (٢٧٧٨).
(٣) الأرجوزة المنبهة (ص: ٧٦، ٧٧).

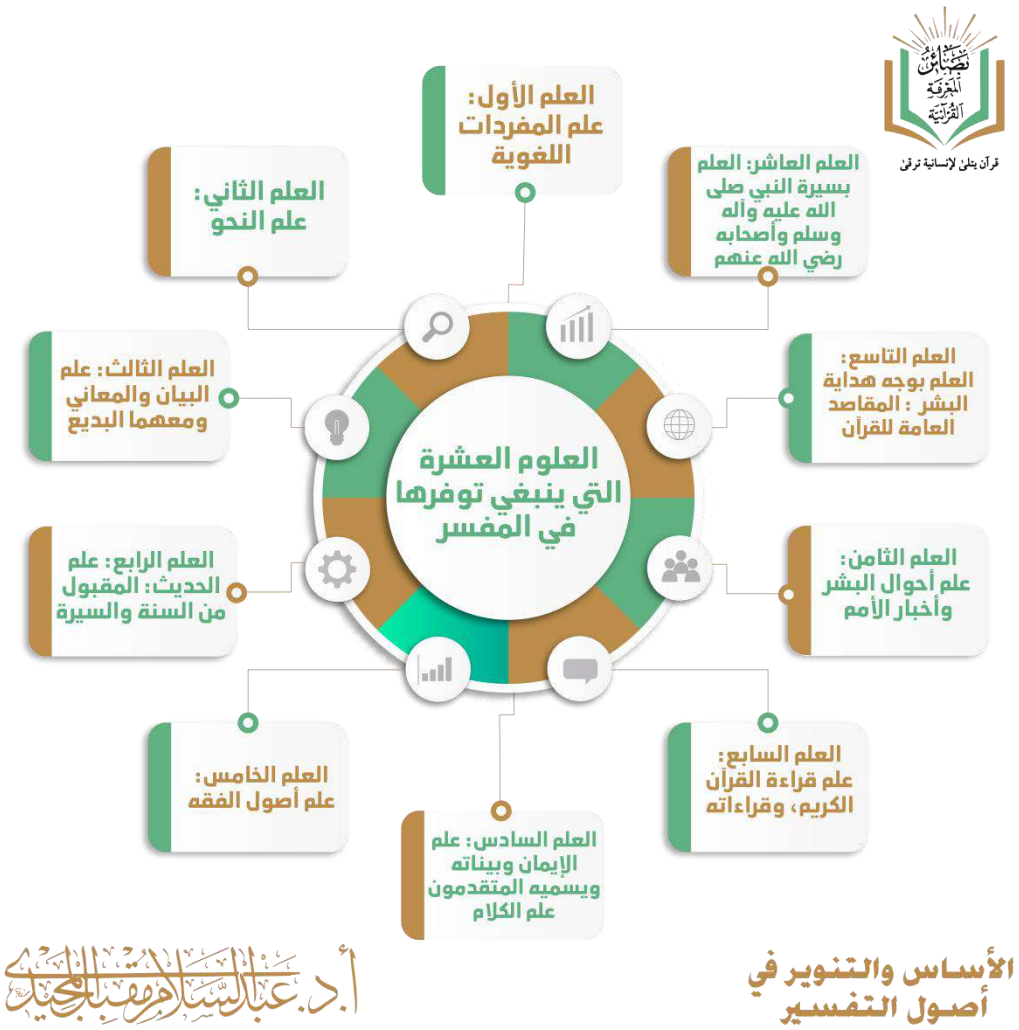

العلم الأول: **علم المفردات اللغوية**: ويدخل فيه أمران: علم الغريب، وعلم التصريف، وينبغي للمفسر هنا –كما يرى الأستاذ مُحَمَّد عبده– **فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة** غير مكتفٍ بقول فلان وفهم فلان؛ فإن كثيرًا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد... فعلى المحقق المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله.

العلم الثاني: **علم الصرف والنحو**: ويؤخذ منه معرفة الأحكام التي للكلمات العربية من جهة إفرادها وتركيبها؛ فالنحو معرفة التغيير الذي طرأ على أواخر الكلم لاختلاف المعنى، بينما الصرف هو معرفة المعنى بناء على بنية الكلمة.

العلم الثالث: **علم البيان والمعاني ومعهما البديع**:

ويوضح الفرق بينها الشيخ عبد الرحمن الأخضري في الجوهر المكنون، فيقول[1]:

٢٨- وجعلوا بلاغة الكلام طِباقَهُ لِمُقتضى المقامِ

(١) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون (ص: ٢٣).

٢٩- وحـــافظٌ تأديـــةَ المعـــاني عَـــنْ خَطَـــأٍ يُعْـــرَفُ بـــ"المعاني"

٣٠- ومـا مِـنَ التعقيـدِ في المعـنى يَقِـي لَـــهُ "البيـــانُ" عِنْـــدَهُمْ قَـــدِ انْتُقِـــي

٣١- ومـــا بـــه وجـــوهُ تحســـين الكَـــلامْ تُعْـــرَفُ يُـــدْعى بـــ"البَديعِ" والسَّـــلام

فعلم المعاني يحفظ من الخطأ في تأدية المعنى، وأدخلوا فيه: مباحث مثل[١]:

٣٣- إســـناد، مُســـنَدٌ إِلَيْـــهِ مُسْـــنَدُ وَمُتَعَلَّقـــــاتُ فِعـــــلٍ تُـــــورَدُ

٣٤- قَصْـرٌ، وَإِنْشـاءٌ، وَفَصْـلٌ، وَصْـلٌ، إيجـــازٌ، اطنـــابٌ، مُســـاواةٌ رأَوْا

وعلم البيان يحفظ من التعقيد المعنوي، ومباحثه ثلاثة قال عنها الأخضري[٢]:

١٤٨- فـنُّ البيـانِ عِلْـمُ مـا بـهِ عُـرِفْ تأديـــة المعـــنى بِطُـــرْقٍ مختَلِـــفْ

١٤٩- وضـوحُها، واحصـره في ثلاثـةِ تشـــبيهٍ، أو مجـــازٍ، أو كنايـــةِ

والبديع يحسن وجوه الكلام، وهو أنواع متعددة تبين حلاوة الكلام.

وهذه العلوم توضح لك جمال النظم القرآني، وتظهر لك أسرار تركيب الكلمات في الآيات، كما قال الزمخشري ﵀: "ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليمًا من القادح"[٣].

قال السيوطي ﵀: "وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر؛ لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما هو يدرج بهذه العلوم"[٤].

ولهذين العلمين (البيان والمعاني) —كما يقول الطاهر بن عاشور ﵀ –"مزيد اختصاص بعلم التفسير، لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم: علم دلائل الإعجاز"[٥]، بل قال فيهما الزمخشري ﵀: "علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بَزَّ أهلَ الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعاني"[٦].

---

(١) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون (ص: ٢٤).

(٢) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون (ص: ٣٤).

(٣) الكشاف (٣٢/١).

(٤) الإتقان (٢١٤/٤).

(٥) التحرير والتنوير(٧/١).

(٦) الكشاف (٢/١).

وقد تتساءل: ما فائدة معرفة هذه العلوم الثلاثة؟

وفائدة معرفة هذه العلوم الثلاثة معرفة الأساليب القرآنية الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والوقوف على مراد المتكلم منه. نعم! إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة، ويحتاج في هذه إلى هذه العلوم(١).

قال ابن أبي الحديد: "اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة عليه.

وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه يكون من أهل الذوق، وممن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل، والخطب، والكتابة، والشعر، وصارت لهم بذلك دربة، وملكة تامة، فإلى هؤلاء ينبغي أن يُرجع في معرفة الكلام، وفضل بعضه على بعض"(٢).

هل نضج هذا العلم واحترق؟

الجواب: لا، بل يجد المرء آفاقًا رحبة في هذا العلم يمكن تجديدها، أو بناء قواعد جديدة على القواعد الصلبة القديمة التي أُسِّست في هذا العلم، وحسبك أن ترى اللفتات البيانية البارعة التي استخرجها ابن عاشور ﵀ في تحريره وتنويره لتشعر بمقدار السعة القرآنية للمعاني غير المتناهية.

تراجع السلسلة التي قدمتها في اليوتيوب بعنوان (لماذا قال الله ﷻ؟ من أسرار ترتيب القرآن)، وانظر إلى الحلقة الأولى منها لتحبوك بمثال: لماذا قال نوح ﵇: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يقل: إني أخاف عذاب يوم عظيم عليكم.

العلم الرابع: علم الحديث، أي المقبول من السنة والسيرة، ويدخل في ذلك المراسيل المقبولة، والآثار الضعاف المنجبرة، والضعاف التي لا تنطوي على ما يصادم ما هو أقوى منها، ولا بد من التحقق الحديثي في مواطنه كمواطن الإشكال ونسبة الأقوال إن احتوت على ما يستغرب(٣).

فيؤخذ منه توضيح المعاني القرآنية حسب الفهم النبوي لها، وحسب تطبيقه لها في واقع أصحابه ﵃، والواقع المحلي والعالمي الذي كان يعالجه، وبذلك نستطيع أن نعين المبهم، ونبين المجمل، ويتضح لنا فيه سبب النزول.

العلم الخامس: علم أصول الفقه: ويؤخذ منه معرفة العلاقة بين الإجمال والتبيين، وبين العموم والخصوص، وبين الإطلاق والتقييد، كما نسترشد منه دلالة الأمر والنهي وما أشبه هذا.

---

(١) المنار (٢٠/١).

(٢) شرح نهج البلاغة (ص: ١٢٩).

(٣) وذهب بعض فضلاء المحققين إلى أن التحقيق الحديثي غير معهود في صنيع المفسرين، فيقال له: هذه دعوى عريضة، وتحتاج إلى تفصيل آخر، ولو اطلع القارئ على ما أورده الثعلبي في قوله تعالى: {فتلقى آدم} ومواضع مماثلة لوجد ما يخاف فيخ على الثعلبي أمام الله لأنه أورده.

العلم السادس: علم الإيمان وبيناته (يسميه المتقدمون علم الكلام): ويؤخذ منه ما يتعلق بالإلهيات، والنبوات وبراهينها.

العلم السابع: علم قراءة القرآن الكريم، وقراءاته: لأنه به يعرف كيفية النطق بالقرآن، فدخل فيه علم التجويد، ويقدم لنا علم القراءات فوائد عظيمة؛ إذ قد تتغير الصورة التي ترسمها الآية باختلاف القراءة، وقد تؤدي القراءات المتواترة لتثبيت أحكام مختلفة في الآية، فلنضرب لذلك مثلاً:

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فالقراءتان المتواترتان في هذا الموضع تقدمان لنا صورتين[(١)]:

الصورة الأولى: قراءة الأمر ﴿قَالَ ٱعْلَمْ﴾ تدل على أن الله أو الملَك بعد أن أراه تلك المعجزة الباهرة قال له: ﴿ٱعْلَمْ﴾ آمرًا، أي تيقن أو ازدد يقينًا أن الله على كل شيء قدير، وذلك بعد أن رأيت عين اليقين إحياء الله تعالى للموتى.

الصورة الثانية: تنبئنا بها قراءة (الإخبار) بالمضارع ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ فإنها تدل على أن الرجل بعد أن سمع ذلك ردد تلك العبارة: أعلم أن الله على كل شيء قدير...منذهلاً مسبحًا...كما يرى اثنان منظرًا جميلاً فيقول أحدهما للآخر: قل سبحان الله...فيردد الآخر: سبحان الله مكررًا إياها... وهو وصف تصويري إعجازي بديع.

فنحتاج للقراءات من حيث هي طريق في أداء ألفاظ القرآن لا من حيث إنها شاهد لغوي فقط، كما يظهر من كلام الطاهر بن عاشور ﷺ[(٢)]، فالمعاني التي قد تستفاد من اختلاف القراءات أعم من أن تكون مجرد حجة لغوية، أو استعمالاً عربيًّا.

العلم الثامن: علم أحوال البشر وأخبار الأمم أي: **علم التواريخ والأحداث والأخبار والعلوم الأخرى التي يستفاد منها في فهم القرآن الكريم**: فقد أنزل الله ﷻ هذا الكتاب، وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، وبين فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعه، وبين فيه سننه الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها.. فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشيء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه، فـ "يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سَوْقها؛ لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار للموعظة والاعتبار، لا لأن يتحادث بها الناس في الأسمار...فنحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل:٩٢]، وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب"[(٣)]، ومثل

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بالوصل، وإسكان الميم على الأمر، وإذا ابتدآ كسرا همزة الوصل. وقرأ الباقون بقطع الهمزة والرفع على الخبر. النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٣).

ذلك ما ذكره الله ﷻ من عادات العرب وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٢].

ومن الأمثلة التي تدل على أهمية ذلك: قصة المغيرة بن شعبة ﷺ عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، فقال له النصارى: إنكم تقرؤون ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. قال المغيرة: فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[(١)].

ما مكانة علم التاريخ والآثار في فهم القرآن الكريم واكتشاف كنوزه؟

علم التاريخ والآثار من العلوم التي حثنا الله ﷻ على معرفتها معرفة صحيحة تجريبية بأن نقف عليها بأعيننا إن استطعنا، وليس بأن نكتفي فيها بالرواية، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وآيات الحث على السير في الأرض كثيرة لافتة مدهشة تحثنا حثًّا على اكتشاف المخبآت في الأرض تاريخًا وآثارًا وتربةً (جغرافيا).

ما الأسس التي لا بد من اصطحابها عند السير في الأرض؟

هذا الاستكشاف المطلوب يكون لنا عوامل مساعدة تخبرنا بالإعجاز القرآني، وينبغي أن نصطحب عدة أسس هاهنا:

الأساس الأول: ينبغي ألا نغتر بما وصل إلينا من المقررات التاريخية حتى نعرضها على الوحي المعصوم، وعلى التحقيق العلمي الذي هدانا إليه القرآن والسنة؛ فالمقررات التاريخية لا تخلو من حالين:

الحال الأول: أن تكون رواية، فالرواية لا بد فيها من التمحيص عند الحاجة لإظهار الحق من الباطل، والصدق من الكذب، فبعض الناس يقيمون عقائدهم على أكاذيب مثل أكذوبة الصلب، وأكذوبة الإمام الغائب.

الحال الثاني: أن تكون آثارًا ظاهرة أو مكتشفة، فيجب عدم التسليم لكل ما يذكره المستكشفون إلا على حذر، فعلى سبيل المثال: فك دلالات الرموز الهيروغليفية ينسب في العصر الحاضر إلى شامبليون، فلا ينبغي التسليم الكامل لما قرره قبل إعادة دراستها مجددًا دراسة موضوعية محايدة غير مصاحبة للأهداف الخاصة للاحتلال الغربي؛ إذ كثير من هذه المكتشفات تصحبها أطماع الغزو الخارجي، واستغلال أصحابه، وما أكثر ما يقومون بسرقة الآثار.. هذا لا يعني أننا نبقى بمعزل عن الإفادة منها، وإنما المراد أن تكون هذه الإفادة في غاية الحذر، وما زلت أعجب لأقسام التاريخ والآثار وبعض أقسام الهندسة كيف لا يربطون الطلاب في الجامعات بدراسة آثار

---

(١) مسلم (٥٦٤٩).

بلدانهم مجددًا لاستكشاف المخفي، والتأكد من حقيقة المكتشف مع ما تراه من ضخامة الآثار في منطقتنا المسلمة من الربع الخالي.

لتطبيق ذلك على التفسير وجدت بعض المفسرين يزعم أن معنى قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] أي العمد الطويلة التي توضع لنصب الخيام، وسمعت بعض المعاصرين الذين يرتبطون بأهداف العبث السياسي يؤيدون ذلك، ويزعمون أن عادًا كانوا أصحاب رعي وخيام بينما تجد هذا يخالف صريح القرآن بصورة واضحة، فالله يقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[الأحقاف: ٢٥].

الأساس الثاني: عدم الاغترار بالكمية الهائلة من المعلومات التاريخية بناء على الآثار؛ إذ ما زال هذا العلم قابلاً للاستكشاف والزيادة، ومن ثم فإن من يأتي بالمسلَّمات التي يفرضها على الآخرين لا يأتي إلا عجبًا وغرورًا، ولذا ترى العالم حذِرًا فيما يقول، فكثير من العلماء الباحثين يقولون: الذي وصل إلينا كذا وكذا، ويعنون بذلك أننا قد نكتشف شيئًا جديدًا يغاير أو يناقض ما وصل إلينا، ولا يجزم بالنتائج العلمية الأولية إلا المغرورون.

ومثل ذلك أن نتعرف إلى العلوم الكونية التي أجملها القرآن، فينبغي أن يكتشف المفسر ما تخبئه الآيات من المعلومات المتعلقة بعلم الأجنة، وعلم الفلك، وعلم البحار، وأمثال ذلك ليستطيع إظهار الجمال البياني للآية القرآنية دون أن يغتر بما اكتشفته العلوم الكونية إلا أن يكون ما اكتشفته حقيقة واضحة، وليس مجرد فرضيات علمية.

هل يعني هذا أن المفسر لا بد أن يعرف علم الفلك وعلم الأجنة وعلم الفيزياء مثلاً حتى يستطيع تفسير القرآن الكريم؟

لا نعني هذا، فهذا لم يقله أحد، وإنما قصدنا أن يكون عند المفسر معرفة إجمالية بالمعاني التي أشار لها القرآن مما يتعلق بهذه العلوم، ثم يتوسع المتخصصون لبيان مواضع الإعجاز التي دلت عليها ألفاظ القرآن الكريم وفق مصادر التفسير لا وفق الأهواء والرغبات، وبذلك ننزه القرآن المجيد عن أن يتم العبثُ بألفاظه باسم الإعجاز البياني أو العلمي في غير مواضعهما.

العلم التاسع: العلم بوجه هداية البشر كلهم في القرآن مما يعني التعرف إلى المقاصد العامة للقرآن وللدين، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي ﷺ بُعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبَّحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم وما كانوا عليه.

ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي كما ترى بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم يعدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء.

العلم العاشر: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها(١).

وعد السيوطي ﷺ مما يحتاج إليه المفسر: علم التصريف، وعلم الاشتقاق، ويمكن إدخالهما في علم اللغة، وعد أيضًا علم الفقه، ولم يعده غيره، ولكل وجهة، وعد علمَ الموهبة أيضًا من ذلك قال: وهو علمٌ يورثه الله تعالى لمن عمِل بما علم، وإليه الإشارة بالحديث «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»(٢)"(٣)، وأوصل بعض العلماء العلوم التي يحتاجها المفسر إلى خمسة عشر فنًّا(٤).

"قال ابن أبي الدنيا: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مُفَسِّرًا إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسرًا بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرًا بالرأي المنهي عنه، قال: والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب، واستفادوا العلوم الأخرى من النبي ﷺ"(٥).

وهذه الشروط ضرورية: "في غير أدنى مراتب التفسير، أما الأدنى فهو جائز من غير اعتبار تلك الشروط؛ لأن الله يسره حتى للعامة"(٦).

الأدب الثالث: صحة الاعتقاد ولزوم الشريعة:

كما قال السيوطي ﷺ: "فإن من كان مغموصًا عليه في دينه، لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين؟ ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالِم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى؟ ولأنه لا يُؤْمَن إن كان متهمًا بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويَغُرَّ الناس بِلَيِّه وخداعه، كدأب الباطنية، وغلاة الرافضة، وإن كان متهمًا بهوى، لم يُؤْمَن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته"(٧)، وقد خلف في زماننا الفِرَقَ التي ذكرها السيوطي ﷺ فرقٌ أسوأُ سبيلاً، وأضلُّ فعلاً وقيلاً مثل: الحشاشين الجدد الذين يريدون تغيير معاني الدين بما يوافق إجرامهم وافتراءهم في الدين كأن يلغوا معالم الإسلام باسم الديانة الإبراهيمية، ومثلهم الذين يشاقون الله ورسوله من متطرفي العلمانيين.

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢١) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٥)، بلفظ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وضعفه، وقال الألباني " موضوع". سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٢٢).

(٣) الإتقان (٢/ ٤٧٧)، روح المعاني (١/ ٥).

(٤) انظر: كشف الظنون (١/ ٤٢٧)، أبجد العلوم (٢/ ١٨٤).

(٥) الإتقان (٢/ ٤٧٧).

(٦) مناهل العرفان (٢/ ٤٠).

(٧) الإتقان (٤/ ٢٠١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «لا يدرك معانيه —القرآن– ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي»(١).

وبين معاذ بن جبل رضي الله عنه كيف تُغَيِّرُ الفتنُ النواحي الفكرية عند حاملي القرآن، أو عند من يفترون الكذب ممن ينتسبون إلى أمة القرآن، فيروي عنه يزيد بن عَميرة الزبيدي قوله: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لاَ يَتَّبِعُونِي، وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِي حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ؛ فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلاَلَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ». قَالَ يزيد: قُلْتُ لِمُعَاذٍ: مَا يُدْرِينِي -رَحِمَكَ اللَّهُ- أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ، وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: «بَلَى، اجْتَنِبْ مِنْ كَلاَمِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ، الَّتِي يُقَالُ لَهَا: مَا هَذِهِ؟ وَلاَ يَثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ، فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا»(٢).

الأدب الرابع: صحة المقصد ليجد التسديد:

بأن يريد المفسر من تفسيره إرضاء الله بهداية الناس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ»(٣)، وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَزْدِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وينْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ ويَحْرِقُ نَفْسَهُ»(٤).

الأدب الخامس: عدم الغرور أو الكِبْر، فهما يُفْضيان إلى بطر الحق، وغمط الناس:

فقد حذر النبي ﷺ من المتكبرين المغرورين من قراء المسلمين، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار، وحتى يخاض بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي قوم يقرؤون القرآن، فإذا قرأوه قالوا: قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منا؟ فمن أعلم منا؟ ثم التفت

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٣٠).

(٢) أبو داود (٤٦١١)، وصححه الأرناؤوط، والألباني.

(٣) وهذا اللفظ هو حديث أبي هريرة رواه ابن ماجه (٢٦٠)، وقال الأرناؤوط:" إسناده ضعيف جدًا، عبد الله بن سعيد المقبري متروك، واتهمه يحيى بن سعيد بالكذب"، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣٨/١)، وحسنه الألباني.

أما حديث جابر فنصه:" لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَالنَّارُ النَّارُ" رواه ابن ماجة (٢٥٤)، قال الأرناؤوط:" حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الصحيح، لكن فيه عنعنة ابن جريج، وأبي الزبير"، وصححه الألباني لغيره.

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٦٨١)، قال الألباني في الصحيحة (٧/ ١١٣٣):" وهذا إسناد جيد– وحسنه المنذري في "الترغيب "، رجاله ثقات من رجال البخاري؛ غير علي بن سليمان الكلبي، وهو ثقة، وثقه هشام بن عمار".

ﷺ إلى أصحابه، فقال: «هل ترون في أولئك من خير؟» قالوا :لا، قال: «فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار»(١).

والغرور والكبر يجعلان الإنسان يعتقد فِي نَفْسِهِ أنه من أهل الاجتهاد، وإن لم يبلغ تلك الدرجة، فيجعل "رَأْيَهُ رَأْيًا وَخِلَافَهُ خِلَافًا"-كما يقول الشاطبي(٢)-، ويورثه الكبرُ الارتباكَ في تقرير المسائل، حتى تراه آخذًا ببعض الشرع ليضرب به الشرع، كأن يأخذ جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، أو في هدم جزئياتها الأخرى، وحذر النبي ﷺ من ذلك فقَالَ: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا يتنزعه مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوسًا جهالاً فسئلوا، (فأفتوا) بغير علم، فضلوا وأضلوا»(٣).

وفي الآداب السابقة قال الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله-:

وأَنْ يكـونَ ذَا بَصِيـرَةٍ بِمَـا — حَـدَّدَهُ في ذا الـمجالِ العُلَمَـا
كَقَوْلِ فـارِسِ الْمَجَـالِ الـدَّاني — (مَـنْ كـانَ ذا فهْـمٍ وذا إتْقـانِ)
(مِـن مقـرِئٍ مُنتَصـبِ إمـامِ) — إلى انْتِهَـا أَبْيـاتِ ذَا الإمـامِ
واشْـتَرطوا صِـحَّةَ الاعْتِقـادِ — مَـعَ لُـزومِ سُـنَّةِ الرَّشـادِ
وصِـحَّةَ المقْصَـدِ فِي الْمَقُـولِ — لِيُمْـنَحَ التَّشْـديدَ في المنْقـولِ
وعَـدَمَ الغُـرُورِ والكِـبْرِ. فَـذَرْ — ذَانِ يَجُـرَّانِ لِغَمْـطٍ وَبَطَـرْ

الأدب السادس: أن يكون الرجوعُ إلى الكتاب المجيد رجوعَ افتقار لا رجوعَ استظهار:

وقد قسم أبو إسحاق الشاطبي ﷺ (ت٧٩٠هـ) الرجوعَ إلى الشريعة كتابًا وسنة إلى قسمين: أَحَدُهُمَا: مشروع، والآخر: ممنوع(٤).

أما المشروع، فهو: رجوع الِافْتِقَارِ، بأن ترجع إلى القرآن رجوع المفتقر إلى المعلومة الصحيحة سواء أكانت المعلومة التي تريدها تتعلق بالتشريع مثل الحلال والحرام في البيع، أم تتعلق بالأخبار مثل: وجود فرعون وهامان، ويركز الشاطبي ﷺ على الرجوع في البحث عن حكم وقائع الحياة، فيقرر أن الرجوع المشروع يفتقر فيه المرء إلى الشرع في بحثه عن مراد الله ﷻ في الحكم على الحوادث المختلفة الفردية والجماعية؛ لِتَقَعَ النازلة فِي الْوُجُودِ عَلَى وِفَاقِ مَا أَعْطَى الدَّلِيلُ مِنَ الْحُكْمِ، أَمَّا قَبْلَ وُقُوعِهَا؛ فَبِأَنْ تُوقَعَ عَلَى وَفْقِهِ، وَأَمَّا بَعْدَ وُقُوعِهَا؛ فَلْيَتَلَافَى الْأَمْرَ، وَيَسْتَدْرِكَ الْخَطَأَ الْوَاقِعَ

---

(١) الطبراني في الأوسط (٦٢٤٢) من حديث عمر ﷺ، ورواه أبو يعلى (٦٦٩٨)، وابن المبارك في الزهد (٤٥٠) واللفظ له من حديث العباس ﷺ، وأورده الألباني في الصحيحة برقم (٣٢٣٠)، وبعد أن ذكر طرق الحديث قرر أنه يرتقي إلى الحسن.

(٢) الاعتصام (٩٨/٣).

(٣) البخاري (١٠٠).

(٤) الموافقات (٢٩٠/٣، ٢٩١).

فِيهَا، بِحَيْثُ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَوْ يَقْطَعُ بِأَنَّ ذَلِكَ قَصْدُ الشَّارِعِ، وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ شَأْنُ اقْتِبَاسِ السَّلَفِ الصَّالِحِ الْأَحْكَامَ مِنَ الْأَدِلَّةِ.

وأما الرجوع الممنوع إلى كتاب الله فهو: رجوع الاستظهار؛ بأن يرجع إلى الشريعة لقصد الِاسْتِظْهَارِ عَلَى صِحَّةِ هدفه أو أفعاله أو أفكاره في المجال التشريعي أو في المجال الخبري، ففِي النَّازِلَةِ الْعَارِضَةِ يرجع إلى القرآن فيجعل ما في خاطره هو الأصل، ويبحث عما يسوغ ذلك؛ ليكون ظهيرًا له أمام الخلق حبًّا لهواه مِنْ غَيْرِ تَحَرٍّ لِقَصْدِ الشَّارِعِ، قال الشاطبي ﵀: "وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ شَأْنُ اقْتِبَاسِ الزَّائِغِينَ الْأَحْكَامَ مِنَ الْأَدِلَّةِ"؛ ولذا سُمِّيَ أَهْلُ الْبِدَعِ: أَهْلَ الْأَهْوَاءِ؛ لِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَلَمْ يَأْخُذُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مَأْخَذَ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهَا، بلْ قَدَّمُوا أَهْوَاءَهُمْ، وجَعَلُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ تبعًا؛ إعجابًا بآرائهم كبرًا وغطرسة، أو طَلَبًا لِلرِّيَاسَةِ بموافقة أهواء غيرهم من الأغنياء والكبراء والأمراء، أو المؤسسات الدولية.

ولزيادة الإيضاح يمكن أن نقول: رجوع الاستظهار نوعان:

استظهار ممنوع وهو الذي قرره الشاطبي ﵀ بأن تستظهر بالشريعة على هواك الذي ملت إليه.

واستظهار مشروع بأن تستظهر بالشريعة على معنى حسن ظهر لك من خلال الشريعة، وأحببت البحث عن أدلة أخرى لزيادة الاطمئنان كما فعل الشافعي في مسألة تطلب الدليل على الإجماع، أو كما صنع قبله عمر بن الخطاب ﵁ في تقسيم الأراضي المفتوحة.

وبذلك ترى أننا قسمنا الرجوع إلى ثلاثة أقسام تفصيلية: رجوع الافتقار وهو مشروع، ورجوع استظهار لأجل تثبيت معنى حسن وهو مشروع أيضًا، ورجوع استظهار لتثبيت هوى من الأهواء، وهذا هو النوع الممنوع.

وَيَظْهَرُ هَذَا الْمَعْنَى في قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٧]؛ فيتبعون ما تشابه منه لأنهم يريدون الفتنة لا معرفةَ ما أراد الله.

وأما الصنف الصادق فهم: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾، وهؤلاء الراسخون من بلاغة القرآن العظيمة أن جعلهم في محل إعرابي يمكن من خلاله أن نفهم لهم صفتين:

الصفة الأولى: الاجتهاد في البحث عن مراد الله، ونفهم هذه الصفة عندما تكون كلمة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة، ويكون المعنى: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون حال قولهم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي أنهم بحثوا عن مراد الله، وقرروه، وقرروا أن يقدموا كل ما ظهر لهم من معاني كلام ربهم على أهوائهم.

الصفة الثانية: التفويض إن لم يعرفوا المعنى المراد، ونفهم هذه الصفة عندما يكون الوقف تامًّا على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وما بعدها ابتداء، ويكون المعنى: والراسخون في العلم إن لم يظهر لهم

المعنى المراد يفوضون الأمر لنا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

ورجوع الافتقار ورجوع الاستظهار أصدر فيهما النبي ﷺ التنبيه التحذيري في قوله: «القرآن شافعٌ مُشَفَّع، وماحِلٌ مُصَدَّق: من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»[1].

«جعله أمامه» أي أقبل عليه مفتقرًا إلى العلم الذي فيه، فجعله أمامه يقوده إلى حيث أراد الله، فصار القرآن أمام الإنسان، والقرآن يقود الإنسان.

«جعله خلف ظهره» أي قرأ القرآن ليجد فيه آيات يلوي معناها حتى تتبع هواه، فصار القرآن بعد الإنسان، والإنسان يقود القرآن، والنتيجة: «القرآن شافع مشفع» بأن يشفعه الله فيك، وإما «ماحل مصدق» أي خصم يصدق الله دعواه عليك.

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله تعالى–:

وأنْ يَـــرَى رَجُوعَـــهُ افْتِقَـــارَا ... إلَى كِتَـــابِ اللهِ لاَ اسْتِظْهَـــارَا

مُجْتَنِبًـــا رذائِـــلَ التَّلاَعُـــبِ ... بالـنَّصِّ. وَهْـيَ لِـثَلاثٍ تُنْسَـبِ

هِـــيَ ادِّعَـــا رُتْبَـــةِ الاِجْتِهَـــادِ ... مَـــعَ قُـصُـــورِهِ ونَـــزْرِ الـــزَّادِ

ثُمَّ اتِّبَاعُـــهُ الْهَـــوى الْمُـــرادِ ... تَصْـــمِيمُهُ عـــلى اقْتِفَـــا الْعَوائِـــدِ

الأدب السابع: معرفة أركان التفسير السبعة ليصل إلى التفسير الصحيح، وهي:

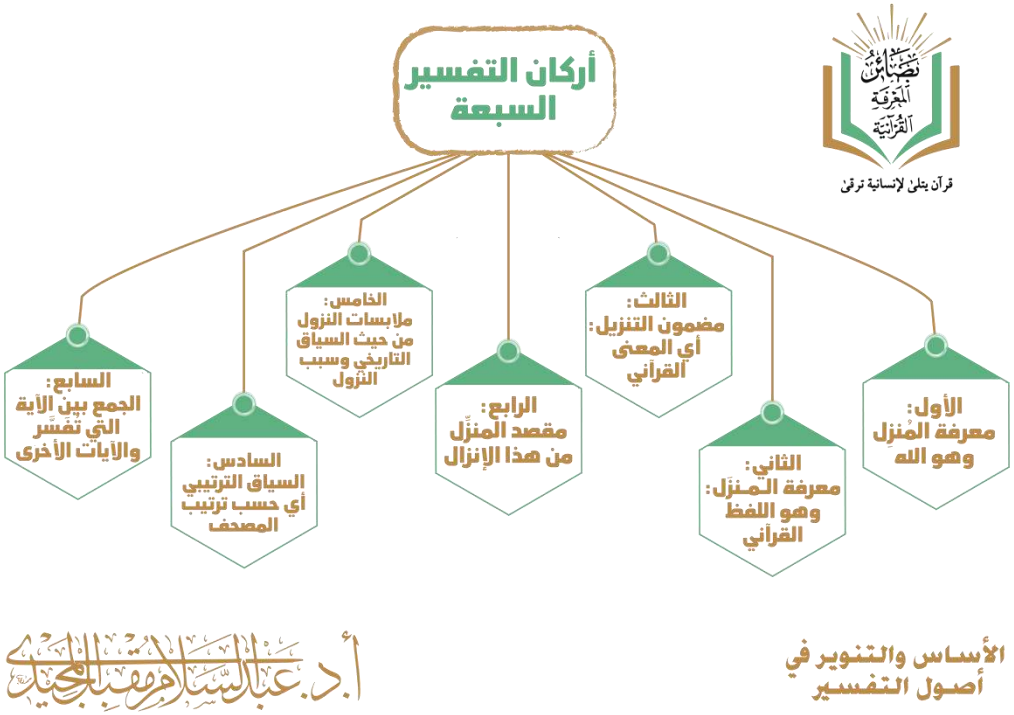

(١) ابن حبان (١٢٤)، من دون لفظ (شافع)، وبكسر همزة (إمامه)، وهو مورد الظمآن (١٧٩٣) باللفظ المذكور في المتن، لكن بكسر همزة (إمامه)، وجود إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة: (٢٠١٩)، والماحل الخصم الذي يفضح ظلم الإنسان.

فالأول: **معرفة المنُزِل**: (وهو الله ﷻ، فيجب حمل كلامه على ما يليق بذاته).

والثاني: **معرفة المـُنزَل**: وهو اللفظ القرآني، فتعرف له قدره، وتمنع إدخال ما ليس منه فيه، وأشار إلى ذلك أبو حيان ﵀ في أول التعريف الذي ارتضاه للتفسير بقوله: "معرفة كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم".

والثالث: **مضمون التنزيل**: أي المعنى القرآني من حيث الابتداء، لا من حيث النتيجة الكلية، وهذا الذي هو الذي أشار إليه أبو حيان ﵀ بقوله: "ودلالاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية".

والرابع: **مقصد المنزِّل** –جل مجده– من هذا الإنزال: فعندما تقرأ مثلاً ما يتعلق بالحدود الجنائية فإنه يَقِرُّ في نفسك أن المنزِّل ما أراد تعذيب الجاني لذاته بل أراد الرحمة به وبالمجتمع حوله، وكيف لا يكون ذلك وأنت تبدأ السورة بالبسملة، والبسملة تتضمن صفتين من صفاته العلية ﷻ يرجعان إلى الرحمة.

وأبرز مثال يوضح لك هذه المسألة في القرآن الصفحة الأولى من سورة النور؛ فإن فيها وجوب إقامة العقوبة الجنائية لمن ارتكب جريمة الزنا، ووجوب إقامة العقوبة الجنائية أيضًا لمن ارتكب جريمة القذف، وفيها الإشارة إلى التفريق بين الزوجين بعد التلاعن بينهما، فهذه العقوبات الثلاث يظهر منها بادئ الرأي أنها مؤلمة، ولكن الله ﷻ ختم ذكر هذه العقوبات بأن قال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] فجمع بين الفضل الذي حبا به الناس، والرحمة، والتوبة والحكمة، فليس قصده من إنزال هذه العقوبات إيلام الناس، وإنما قصده الفضل، والرحمة، والتوبة، والحكمة.

والخامس: **ملابسات النزول من حيث السياق التاريخي**، والمراد به سبب النزول أو ما حف النزول من ملابسات تاريخية كما ترى في سورتي المزمل والمدثر الجامعتين بين قيام الليل وقيام النهار (ففي المزمل إعداد لمهمة النهار، وفي المدثر تنفيذ لهذه المهمة، هي انقاذ الناس، وقد يقال: المدثر تنفيذ، والمزمل إعانة).

والسادس: **السياق الترتيبي** أي حسب ترتيب المصحف، وهذا يقتضي معرفة محددات السياق، وهما: السِباق، واللِّحاق.

والسابع: **الجمع بين الآية التي تُفَسَّر والآيات الأخرى**، بأن يظهر الجمع، ولانضرب بعضها ببعض.

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله تعالى–:

أرْكــانُ تـفـسيرِ الكِتــابِ المــنْزَلِ:	مَــعــرِفَــةُ المــنْــزِلِ والمــنَــزَّلِ
مَضْـمــونِ تَـنْزيــلٍ، مُـلابَســاتِ	نُـزولِــه، والجـمْــعِ لــلآيــاتِ
سادِسُـها الأخـيرُ: تَرْتيـبُ السِّـياقْ	حافاتِـهِ، مثـلَ: السِّـباقِ، واللّحـاقْ

وقد ذكر ابن تيمية بعض ما قررنا في هذه الأركان، فقال رحمه الله : "فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ، وَمَا بَعْدَهَا، وَعَرَفَ مَقْصُودَ الْقُرْآنِ: تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ، وَعَرَفَ الْهُدَى وَالرِّسَالَةَ، وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنْ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ. وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ الْمُجَرَّدُ عَنْ سَائِرِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ، فَهَذَا مَنْشَأُ الْغَلَطِ مِنْ الغالطين؛ لَا سِيَّمَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِالِاحْتِمَالَاتِ اللُّغَوِيَّةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ غَلَطًا مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ كَمَا يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ. وَأَعْظَمُ غَلَطًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَنْ لَا يَكُونُ قَصْدُهُ مَعْرِفَةَ مُرَادِ اللَّهِ؛ بَلْ قَصْدُهُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ بِمَا يَدْفَعُ خَصْمَهُ عَنْ الِاحْتِجَاجِ بِهَا، وَهَؤُلَاءِ يَقَعُونَ فِي أَنْوَاعٍ مِنْ التَّحْرِيفِ"[(١)].

هنا يتبادر لك سؤال: ما مقام تفسير المستشرقين الذين يفسرون القرآن دون أن يعترفوا بأن منزله هو الله، فلا يعترفون بالركن الأول من أركان التفسير؟

إليك بعض التفصيل في ذلك:

إنْ قَصَدَ معرفة المعنى بصورة موضوعية فيوشك أن يقوده القرآن إلى الإقرار الحتمي بأن منزله هو الله، وقد رأينا ذلك في كثير من الناس، ورأينا أن بعض هؤلاء تركوا العناد فأسلموا عندما شعروا بأن القرآن لا يمكن أن يقوله بشر، مثل: (جيفري لانج) فإنه قرأ القرآن على اعتقاد أن الذي ألفه بشر، ولم ينته حتى أيقن بأن القرآن كلام الله، ورأينا في المقابل بعض هؤلاء يصر على العناد، فيرى معاني لا يمكن أن يؤلفها بشر، لكنه يبحث عن تأويل بعيد حتى لا يسلم بالنتيجة الحتمية.

وبعضهم يأتي بالتفسير الصحيح لكنه يفر من أن يُذعن للإسلام ظاهرًا.

وبالنسبة لنا فإن القرآن هو الكنز الذي يُفيض بالمعاني المتجددة، وقد يظهر معنى من المعاني عند غير المسلمين، فيُعرض عند ذلك على مقرراتنا وثوابتنا فإما أن نقره وإما أن ننكره، حاله في ذلك حال الكتب السابقة فإننا على يقين من اختلاط كلام البشر فيها بكلام الله، فلا بد أن نعرض ما فيها على ما عندنا للحكم عليها.

الأدب الثامن: معرفة الفرق بين التفسير والتدبر:

ذهب بعضهم إلى أنهما شيء واحد، ولعل هناك فرقًا بينهما، بيانه في الآتي:

الأول: فالتفسير: بيان اللفظة القرآنية بشرحها، وكشف متعلقاتها من الناحية اللغوية، والسياقية، والشرعية، والتدبر: بيان لما وراء اللفظة من المعاني الدقيقة، واستخراجٌ لدرر هداياته، ولذا أخذ من دبر الشيء.

الثاني: التفسير: كلام علمي نظري عن معاني الآيات.

والتدبر: اتعاظٌ بالمعنى، واعتبارٌ به.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٥).

الثالث: التدبر مرحلة تالية لتفسير الوسيلة في الغالب، إلا أن الله -جل مجده- قد يكرم بعضهم بمعنى ينقدح في ذهنه بادئ الرأي، والمقصود بمرحلة ما بعد التفسير، أي: ما بعد التأكد من المعنى المباشر للآية، مما يعرفه العربي عادة بلغته، غير محتاج لمطالعة أقوال المفسرين وتدقيقاتهم.

ولكنني أؤكد على أن العامي ينبغي أن يعرض ما انقدح في ذهنه من تدبر على المختصين العارفين لإقراره أو لتصحيحه، وهذا في غير التدبر المباشر الواضح، مثل القارئ الذي قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] ثم ظل يرددها متأثرًا.

وهنا أذكر بأنني ألفت كتابي (يوسف عليه السلام في بيت العزيز) للرد على تدبرٍ شاع حول قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فقد زعم بعض المتدبرين أن يوسف عليه السلام سأل الله السجن هربًا من المعصية، ولو سأل الله العافية لعافاه الله.. هكذا قال هذا المتدبر، فأخطأ في هذا الفهم، وقد شاع هذا المعنى منذ القرن الرابع الهجري.

الرابع: التفسير طلب للمعنى من الآيات، أما التدبر فمرحلة أُولى للتذكر، فيظهر به التأثر بعد النظر والتفكر، وهنا نعلم قيمة كلام سيدنا عَلِيّ رضي الله عنه في قوله: "الْفَقِيهُ حَقُّ الْفَقِيهِ الَّذِي لَا يُقَنِّطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ الله، وَلَا يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عَذَابِ الله، وَلَا يُرَخِّصُ لَهُمْ فِي مَعَاصِي الله، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا"(١). ولذا يُخاطب به الناس أجمعون على عكس التفسير، فالمكلف به الراسخون. أولم يقل الله -جلَّ مجده-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ولاحظ الآية: فقد عمم التدبر، والآية في سورة ص، وهي مكية، والخطاب فيها لعموم المسلمين وغيرهم، لكن التذكر يختص به أولو الألباب.

فإن قلت: هلَّا ذكرت لنا نماذج من تدبر سلفنا الصالح؟

فخذ أنموذجًا رواه ابْن أَبِي مُلَيْكَةَ في التدبر، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ يصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَإِذَا نَزَلَ قَامَ شطْرَ اللَّيْلِ، وَيُرَتِّلُ الْقُرْآنَ يَقْرَأُ حَرْفًا حَرْفًا، وَيُكْثِرُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّشِيجِ، وَالنَّحِيبِ"، وَيَقْرَأُ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩](٢)، وقَالَ مُطَرِّفٌ: "إِنِّي لَأَسْتَلْقِي مِنَ اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي، فَأَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ وَأَعْرِضُ عَمَلِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا أَعْمَالُهُمْ شَدِيدَةٌ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]، فَلَا أُرَانِي فِيهِمْ، فَأَعْرِضُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَا

(١) الدارمي ت الغمري (ص: ١٥٨)، قال د.مرزوق:" سنده خسن". القطوف الدانية فيما انفرد به الدارمي عن الثمانية (ص: ٨٠).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١٨٤٠)، وقال المحقق: "إسناده حسن"، شعب الإيمان (١٨٩٩).

سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فَأَرَى الْقَوْمَ مُكَذِّبِينَ، وَأَمُرُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَنْتُمْ يَا إِخْوَتَاهُ مِنْهُمْ"[(١)]، وعَنْ وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ قَالَ: «نَظَرْنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا أَرَقَّ لِهَذِهِ الْقُلُوبِ، وَلَا أَشَدَّ اسْتِجْلَابًا لِلْحَقِّ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ»[(٢)]، وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي إِذَا قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ وَتَدَبَّرْتُهُ، كِدْتُ أَنْ أَيْأَسَ وَيَنْقَطِعَ رَجَائِي، فَقَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَأَعْمَالُ ابْنِ آدَمَ إِلَى الضَّعْفِ وَالتَّقْصِيرِ، فَاعْمَلْ وَأَبْشِرْ»[(٣)].

من قواعد التدبر: قد يحصل التدبر، ويحصل التأثر، وينعدم التذكر:

وترى أن هذا ليس خاصًّا بالمسلمين بل تراه في غيرهم، أو ما تذكر -أيدك الله- قصة الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن فتدبر، وتأثر، وقال لأبي جهل عن القرآن: "وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلاَ أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلاَ بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلاَ بِأَشْعَارِ الْجِنِّ. وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا. وَوَاللَّهِ: إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاَوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاَهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ" فقَالَ له أبو جهل: لاَ يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ. فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[(٤)].

الأدب التاسع: معرفة الألفاظ التي يستخدمها المفسر في التعبير عن التفسير:

درج المفسرون -كغيرهم من المحدثين والفقهاء- على استخدام بعض الألفاظ الدالة على وصف خطاب الله -تعالى ذكره- لعباده في كتابه، قصدًا إلى إيجاز العبارة، كقولهم: خاطب الله بهذه الآية المؤمنين، وشَرَّف الله بالذكر الرجل المؤمن من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى، ونحو هذا من إسناد أفعالٍ إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع[(٥)]، فهل يجوز ذلك؟

قرر المحققون -كابن تيمية، وابن القيم- عددًا من الضوابط لهذه القضية، منها:

أولاً: يجوز ذلك؛ لأن ما يدخل في باب **الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب الإنشاء** في باب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فالصحيح أن يُفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يُدْعَى اللهُ ﷻ بِالْأَسْمَاءِ، أَوْ يُخْبَرَ بِهَا عَنْهُ.

---

(١) شعب الإيمان (٦٧٦٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٤٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢١٧).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣٨٧٢)، وقال:" صَحِيحُ الإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ". وقال العراقي: ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسند جيد. المغني عن حمل الأسفار (١/٢٢٣)، شعب الإيمان (١٣٣).

(٥) تفسير ابن عطية (١/ ٥٤).

فَعند الدعاء لا يدعو الداعي إِلَّا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى التي وردت في الشرع، كَمَا قَالَ – تَعَالَى جَدُّه–: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وَأَمَّا عند الْإِخْبَار عَنْهُ ﷻ فيُقبل التوسع بما لم يرد توقيفًا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ؛ كالترجمة إلى غير العربية، ومن ذلك قول النبي ﷺ: يعلم حصين الخزاعي: «قُلِ اللهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي[١]»، وقالت أم سلمة رضي الله عنها: «ثم عزم الله لي..» في الحديث في موت أبي سلمة رضي الله عنه وإبدال الله لها منه رسول الله ﷺ[٢].

ثانيًا: تُشتَقُّ الصفات من الأسماء، ولا تشتق الأسماء من الصفات الفعلية؛ فنشتق من أسماء الله: الرحيم والقادر والعظيم صفاتِ الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشتق من صفات الإرادة والمجيء والمكر اسم المريد والجائي والماكر، فأسماؤه سبحانه وتعالى أوصاف؛ كما قال ابن القيم رحمه الله في (النونية)[٣]:

أسماؤُهُ أوْصافُ مَدْحٍ كُلُّها مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعان

ثالثًا: الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ لكن الصفات تشتق من الأفعال بقدرها، ومثاله: لا نشتق من كونه سبحانه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب، أما صفاته؛ فتشتق من أفعاله، فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها من تلك الأفعال، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء.

وفي باب استعمالات المفسرين: هل يجوز للمفسر أن يقول أثناء تفسيره: كأن الله ﷻ يقول: كذا وكذا؟

ينبغي أن نعرف أن لكلمة "كأن" معانٍ حصرها ابن هشام في (مغني اللبيب) في أربعة[٤]، فمنها:

١) التَّشْبِيه إذا كان خبرها جامدًا مثل قولهم: كأنَّ محمّدًا أسدٌ.
٢) والظَّنّ إذا كان خبرها مُشتقًّا أو جملة مثل قولهم: كأن القوم باتوا غافلين.
٣) والتقريب مثل قولهم: كأنك بالفرج آتٍ.

والمعاني الثلاثة لهذه الكلمة توضح أمرًا محددًا، إلا أن التشبيه يصور شيئًا بصورة شيء آخر، أو مسألة بمسألة، فإن استعملها المفسر في قوله: كأن الله يقول، فهو يريد أن يقرب معنىً ظهر له ضمن الآية، ولا يريد أن ينسب إلى الله تعالى ذلك القول.. من أجل هذا الشَبَه والتقريب يذكر المفسر كلمة: "كأن" في البداية، بل ورد في السنة ما هو أوسع من ذلك:

---

(١) أحمد ١٩٩٩٢، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) مسلم (٣ / ٣٨) ٢١٦٧.

(٣) نونية ابن القيم (ص: ٢١٦).

(٤) ينظر: المغني لابن هشام (ص: ٢٥٣، ٢٥٤)، والمعنى الرابع: التحقيق.

فقد قال شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه قال بحضرة النبي ﷺ[(١)]:

وَقَـالَ اللهُ: قَـدْ أَرْسَـلْتُ عَبْـدًا يَقُـولُ الحَـقَّ لَـيْسَ بِـهِ خَفَـاءُ

وَقَـالَ اللهُ: قَـدْ يَسَّـرْتُ جُنْـدًا هُـمُ الْأَنْصَـارُ عُرْضَـتُهَا اللِّقَـاءُ

فأنت ترى أنه لم يستخدم (كأن) احترازًا، وإنما أتى بمعانٍ وردت أصولها في القرآن الكريم، وبذا ترى جواز مثل هذا الاستعمال عندما يأمن القائل من عدم نسبة ما يوضحه إلى الله ﷻ حرفيًّا.

وقد مدح رسول الله ﷺ هذا الصحابي فقال فيما رواه مسلم: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ اللهِ وَرَسُولِهِ». وقال أيضًا: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ [يعني: قريشًا] فَشَفَى وَاشْتَفَى»[(٢)].

وقد درج علماؤنا على استعمال هذا الأسلوب في استلهام المعاني من الآيات، وذلك أكثر من أن يحصى، فلنضرب لذلك بعض أمثلة من استعمالاتهم:

فَأخرج عبد الرَّزَّاق عَن قَتَادَة رحمه الله ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [القصص: ٨٢] يَقُول: أَو لَا يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ وَفِي قَوْله ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يَقُول: أَو لَا يعلم ﴿أَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(٣)]، فها هو قتادة رحمه الله يدخل شرحه للمعنى ضمن الآية.

وفي تفسير الثعلبي: "فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي كن صادقًا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم"[(٤)].

وفي كتاب "تقويم الأدلة في أصول الفقه" لأبي زيد عبد الله بن عمر الدّبوسيّ الحنفي (ت ٤٣٠هـ):

"كأن الله تعالى يقول: جعلت ما يتصور من الصوم غدًا فرضًا لي بحق الوقت عليكم"[(٥)].

وفي تفسير الرازي: "كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عَبْدِي قَلْبُكَ بُسْتَانِي وَجَنَّتِي بُسْتَانُكَ، فَلَمَّا لَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِبُسْتَانِكَ"[(٦)].

وفي تفسير القرطبي: "فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ: اصْبِرْ، أَيْ كُنْ صَادِقًا فِيمَا ابْتُلِيتَ بِهِ مِثْلُ صِدْقِ إِبْرَاهِيمَ"[(٧)].

وفي معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: "كأن الله يقول مكر قَوْم نوح وأرادوا

---

(١) مسلم (٦٤٧٨).
(٢) مسلم (٦٤٧٨).
(٣) تفسير الطبري (١٩/٦٣٤).
(٤) تفسير الثعلبي (٩/٢٦).
(٥) تقويم الأدلة في أصول الفقه (ص: ٧٢).
(٦) تفسير الرازي (١/٩٣).
(٧) تفسير القرطبي (١٦/٢٢١).

قَتْله وإخراج نوح من بينهم، ومكَرْنا نحن بخروجهم مِنْ وجه الأرض"[١].

وفي حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: "فكأن الله يقول لهم ما أشركتموه لا يخرج عن السماوات والأرض، وشأن الشريك أن يكون مستقلاً خارجًا عن مملكة الشريك الآخر"[٢]، وهو كثير عنده.

وفي تفسير القاسمي: "فكأنّ الله يقول: كن قارئًا بقدرتي وبإرادتي"[٣].

وفي التحرير والتنوير: "فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ قَدْ عَرَفْنَا دَخَائِلَكُمْ"[٤].

وتجد هذا التعبير فاشيًا على ألسنة المعاصرين، فالشيخ مُحَمَّد الأمين الشنقيطي ﵀ يقول: "فكأنّ الله يقول: يا عبدي لا يخطر في عقلك أن سمعي وبصري يشابهان أسماع المخلوقين وأبصارهم"[٥]، وفي أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: "فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلَّذِينِ حَرَّمُوا بَعْضَ الْإِنَاثِ كَالْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ دُونَ بَعْضِهَا، وَحَرَّمُوا بَعْضَ الذُّكُورِ كَالْحَامِي دُونَ بَعْضِهَا: لَا يَخْلُو تَحْرِيمُكُمْ لِبَعْضِ مَا ذُكِرَ دُونَ بَعْضِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَلَّلاً بِعِلَّةٍ مَعْقُولَةٍ أَوْ تَعَبُّدِيًّا"[٦].

وفي العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: "فكأن اللَّهَ يقولُ له: إن عَظُمَ وَشَقَّ عليكَ وأحزنكَ صدودُهم وتوليهم، وقد نهيتُكَ مرارًا عن هذا الحزنِ، فإن كانت لكَ طاقةٌ أو قدرةٌ فَأْتِ بها، وإن عجزتَ عن ذلك فَاعْلَمْ أن ذلك بِيَدِ اللَّهِ، فَكِلِ الأَمْرَ إليه، وَهَوِّنْ عليكَ"[٧].

وترى هذا التعبير: "كأن الله يقول" كثيرًا عند الشعراوي والعثيمين-رحمهما الله-.

---

(١) معترك الأقران (٥٠٥/٢).

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (١١٢/١).

(٣) تفسير القاسمي (٥٠٧/٩).

(٤) التحرير والتنوير (١١١/١).

(٥) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (ص: ٣٦٧).

(٦) أضواء البيان (٤٩٣/٣).

(٧) العذب النمير (١٨٧/١).

أسئلة تقويمية:

س١: ما الشروط والآداب التي يتوجب توفرها في المفسر؟

س٢: اذكر أهم العلوم التي ينبغي للمفسر أن يلمَّ بها.

س٣: بيِّن أهمية علم التاريخ والآثار في فهم القرآن الكريم واكتشاف كنوزه.

س٤: ما المراد بقولنا: أن يكون الرجوع إلى كتاب الله ﷻ رجوعَ افتقار لا رجوعَ استظهار؟

س٥: اذكر أركان التفسير السبعة؟

س٦: ما الفرق بين التفسير والتدبر؟

س٧: هل يجوز للمفسر أن يقول أثناء تفسيره: كأن الله ﷻ يقول: كذا وكذا؟

س٨: ما فائدة معرفة البيان والمعاني والبديع بالنسبة لعلم التفسير ؟